## فَصْلٌ
## [في قواعد صلاح الإنسان في الدنيا]

فأمّا ما يصلح به حال الإنسان فيها.. فثلاثة أشياء، هي قواعد أمره، ونظام حاله؛ وهي:

- نفسٌ مطيعةٌ إلىٰ رشدها، منتهيةٌ عن غيّها.
- وأُلفةٌ جامعةٌ تنعطف القلوب عليها، ويندفع المكروه بها.
- ومادّةٌ كافيةٌ تسكن نفسه إليها، ويستقيم أَوَدُه بها.

* * *

**فأمّا القاعدةُ الأولى التي هي نفسٌ مطيعةٌ**: فلأنها إذا أطاعته.. ملكها، وإذا عصته.. ملكته ولم يملكها، ومَن لم يملك نفسه.. فهو بألاّ يملك غيرها أَحرىٰ، ومن عصته.. كان بمعصية غيرها أَولىٰ.

وقد قال بعض الحكماء: ( لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعةَ غيره وطاعةُ نفسِه ممتنعةٌ عليه )[1].

وقال الشاعر[2]: [من الوافر]

أتطمعُ أنْ يُطيعَكَ قلبُ سُعْدىٰ وتزعمُ أنَّ قلبَكَ قدْ عَصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين: **أحدهما**: نصح، **والثاني**: انقياد.

**فأمّا النُّصحُ**: فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها، **فيرى الرشدَ رشداً** فيستحسنه، **ويرى الغَيَّ غيّاً** فيستقبحه، وهٰذا يكون من صدق النفس إذا سلمت

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٠٨ )، و« محاضرات الأدباء » ( ١/ ٣٢ ).

(٢) البيت للخليل بن أحمد في « ديوانه » ( ص ١٦ )، ونقل في « منهاج اليقين » ( ص ٢٥٤ـ ٢٥٥ ) عن « المستطرف » ( ٣/ ٢١٠ـ ٢١١ ): أن الشعر للوليد بن يزيد حين طلق امرأته وتزوجت بعده، وأرسل إليها أشعب برسالة وردت عليه في قصة طريفة ظريفة.

من دواعي الهوىٰ ؛ ولذلك قيل : ( مَن تفكَّر . . أبصر )[1] .

وأمّا الانقيادُ : فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها ، وتنتهي عن الغَيِّ إذا زجرها ، وهٰذا يكون من قَبول النفس إذا كُفِيت منازعةَ الشهوات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ .

وللنفس آداب هي من تمام طاعتها ، وكمال مصلحتها ، قد أفردنا لها من هٰذا الكتاب باباً ، واقتصرنا في هٰذا الموضع علىٰ ما قد اقتضاه الترتيب ، واستدعاه التقريب[2] .

وأمّا القاعدةُ الثانية التي هي الألفة الجامعة : فلأنَّ الإنسان مقصودٌ بالأذيّة ، محسودٌ بالنعمة ، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً . . تخطَّفَتْهُ أيدي حاسديه ، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمة ، ولم تَصْفُ له مدّة .

وإذا كان آلفاً مألوفاً . . انتصر بالألفة علىٰ أعاديه ، وامتنع بها من حاسديه ، فسلمت نعمته منهم ، وصفَتْ مدّتُه عنهم وإن كان صفوُ الزمان كدِراً ، ويسرُه عسِراً ، وسِلْمُه خَطِراً .

وقد روى ابن جريج ، عن عطاء ، عن جابر ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمنُ آلفٌ مألوفٌ ، ولا خيرَ فيمَن لا يألفُ ولا يُؤلَفُ ، وخيرُ الناسِ أنفعُهم للناسِ »[3] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يرضىٰ لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ؛ يرضىٰ لكم : أنْ تعبدُوهُ ولا تُشرِكُوا به شيئاً ، وأنْ تعتصِمُوا بحَبْلِهِ جميعاً ولا تفرَّقُوا ، وأنْ تُناصِحُوا مَن وَلاّه اللهُ تعالىٰ أمرَكم ،

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » ( ١٦/٩٧ ) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، ورواه ابن طيفور في « بلاغات النساء » ( ص ٥١ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٦٩/١٦٦ ) من قول الزرقاء بنت عديّ الهمدانية .

(٢) سيأتي ( ص ٣٦٧ ) .

(٣) رواه الشهاب في « مسنده » ( ١٢٩ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٨/٤٠٤ ) .

ويكرهُ لكم : قيلَ وقالَ ، وكثرةَ السُّؤالِ ، وإضاعةَ المالِ »[1] ، وكلُّ ذلك حثٌّ منه على الألفة .

والعرب تقول : ( مَن قلَّ . . ذلَّ )[2] .

وقال قيس بن عاصم[3] : [من الكامل]

إنَّ القِداحَ إذا اجتمَعْنَ فَرامَها … بالكسرِ ذو حَنَق وبطشٍ أيِّدِ
عزَّتْ فلمْ تُكسَرْ وإنْ هِيَ بُدِّدَتْ … فالوَهْنُ والتَّكسيرُ للمُتبدِّدِ

❊ ❊ ❊

**وإذا كانت الألفةُ** ـ كما ذكرت ـ تجمع الشملَ ، وتمنع الذلَّ . . **اقتضتِ الحالُ ذكرَ أسبابها** .

**وأسباب الألفة خمسة** ؛ وهي : الدِّين ، والنَّسَب ، والمُصاهرة ، والمودّة ، والبِرّ .

❊ ❊ ❊

**فأمّا الدِّينُ** : وهو الأول من أسباب الألفة . . **فلأنه يبعث على التناصر ، ويمنع من التقاطع والتدابر** ، وبمثل ذلك وصَّىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه وأمّتَه ؛ فروىٰ سفيان ، عن الزهريّ ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تَقاطَعُوا ، ولا تَدابَرُوا** ، ولا تَحاسَدُوا ، **وكُونُوا عبادَ الله إخواناً** ، لا يحِلُّ لمسلمٍ أنْ يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ »[4] .

---

(١) رواه مسلم ( ١٧١٥ ) ، وابن حبان في « صحيحه » ( ٣٣٨٨ ) ، والبخاري في « الأدب المفرد » ( ٤٤٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوله : « **قيل وقال** » هو ما يكون من فضول المجالس مما يتحدث به فيها ؛ كقيل كذا وقال كذا مما لا يصح ولا يعلم حقيقته ، وربما جرَّ إلىٰ غيبةٍ أو نميمة ، أما من قال ما يصح وعُرف حقيقته ، وأسنده إلىٰ ثقة صدوق ، ولم يجرَّ إلىٰ منهيٍّ عنه . . فلا وجه لذمه .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » ( ص ٩٤ ) ؛ وتمامه : ( ومَن أمِرَ . . فلَّ ) ، ورواه في « تاريخ دمشق » ( ٣/ ٤٥٧ ) من قول أوس بن حارثة جد قبيلة الأوس .

(٣) أورد البيتين في « ديوان المعاني » ( ص ١٥٢ ) لقيس بن عاصم المنقري ، وفي « ربيع الأبرار » ( ١/ ٤٥٧ ) و« تاريخ الإسلام » ( ٦/ ١٤٣ ) لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني ، **وذو حنق** : صاحب غيظ ، **وبطش أيّد** ـ علىٰ وزن : كيِّس ـ أي : قوي وشديد .

(٤) رواه مسلم ( ٢٥٥٩ ) ، والترمذي ( ١٩٣٥ ) .

وهٰذا وإن كان اجتماعُهم في الدِّين يقتضيه . . فهو علىٰ وجه التحذير من تذكُّر تِراتِ الجاهلية ، وإِحَن الضلالة ؛ فقد بُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والعربُ أشدُّ الناس تقاطعاً وتعادياً ، وأكثرُهم اختلافاً وتمادياً ؛ حتىٰ إنَّ بني الأب الواحد كانوا يفترقون أحزاباً مختلفة ، وينشأ بينهم بالتحزُّب والافتراق أحقادُ الأعداء ، وإِحَنُ البُعَداء ، وكانت الأنصار أشدَّهم تقاطعاً وتعادياً ، وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثرُ من غيرهم إلىٰ أن أسلموا ، فذهبت إِحَنُهم ، وانقطعت عداواتهم ، وصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين ، وبألفة الدِّين أعواناً متناصرين .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ يعني : أعداءً في الجاهلية ، فألَّف بين قلوبكم بالإسلام .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ يعني : حُبّاً .

وعلىٰ حسب التألُّف على الدِّين تكون العداوة فيه إذا اختلف بأهله ؛ فإن الإنسان قد يقطع في الدين مَن كان به برّاً ، وعليه مشفِقاً ، هٰذا أبو عبيدة ابن الجرّاح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل ، والأثر المشهور في الإسلام . . قتل أباه يوم بدر ، وأتىٰ برأسه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ طاعةً لله ولرسوله ـ حين بقي علىٰ ضلالته ، وانهمك في طغيانه ، فلم تعطفه عليه رَحِم ، ولا كفَّه عنه إشفاقٌ وهو من أبرِّ الأبناء ؛ تغليباً للدِّين على النسب ، ولطاعة الله تعالىٰ علىٰ طاعة الأب ، وفيه أنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[1] .

وقد يختلف أهلُ الدِّين علىٰ مذاهب شتّىٰ ، وآراء مختلفة ، فيحدث بين

---

(١) روىٰ نحوه الحاكم في « المستدرك » ( ٣/ ٢٦٤ـ ٢٦٥ ) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » ( ٩/ ٢٧ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ١/ ١٥٤ ) ، وفصل في « منهاج اليقين » ( ص ٢٦٠ ) من جاهد أقرباءه وعشيرته من الصحابة .

المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان .

**وعلَّةُ ذلك** : أن الدِّين والاجتماع على العقد الواحد فيه لمّا كان من أقوىٰ أسباب الألفة . . كان الاختلاف فيه من أقوىٰ أسباب الفرقة ، **وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة** والمذاهب المتباينة ولم يكن أحدُ الفريقين أعلىٰ يداً وأكثرَ عدداً . . **كانت العداوةُ بينهم أقوىٰ** ، والإِحَنُ فيهم أعظمَ ؛ لأنَّه ينضمُّ إلىٰ عداوة الاختلاف تحاسدُ الأكفاء ، وتنافس النُّظَراء .

**وأمّا النسَبُ** : وهو الثاني من أسباب الألفة . . **فلأنَّ تعاطف الأرحام** ، **وحَميّة القرابة يبعثان** على التناصر والألفة ، **ويمنعان** من التخاذل والفرقة ؛ **أَنَفَةً** من **استعلاء الأباعد** على الأقارب ، **وتوقِّياً من تسلُّط الغرباء** الأجانب ؛ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ الرَّحِمَ إذا تماسَّتْ . . تعاطفَتْ** ، **وإذا تقاست تقاطعت** » .

**ولذلك حفظت العرب أنسابها** لمّا امتنعت بها عن سلطانٍ يقهرها ، ويكف الأذىٰ عنها ؛ لتكون به متضافرةً علىٰ مَن ناوأها[1] ، متناصرةً علىٰ مَن شاقَّها وعاداها ، **حتىٰ بلغت بألفة الأنساب وتناصرها عزَّ القويِّ الأيِّدِ** ، وتحكَّمت فيه تحكُّمَ المتسلِّط المتشدِّد ؛ **حتىٰ إنَّ نبيَّ الله لوطاً أعذرَ نفسَه حين عَدِم عشيرةً تنصره** ، فقال لمَن بُعِث إليه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴾ يعني : إلىٰ عشيرة مانعة .

ورَوىٰ أبو سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **رحِمَ اللهُ لوطاً !! لقد كان يأوي إلىٰ ركنٍ شديدٍ** » يعني : اللهَ عزَّ وجلَّ ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **فما بعث الله بعدَه نبياً إلا في ثَروةٍ مِن قومِه** »[2] .

---

(١) ناوأها : عاداها وخاصمها .

(٢) رواه البخاري ( ٣٣٧٢ ) ، ومسلم ( ١٥١ ) ، والترمذي واللفظ له ( ٣١١٦ ) ، وقال في « منهاج =

وقال وهب : ( لقد ردَّتِ الرسلُ علىٰ لوط ، وقالوا : إنَّ ركنَك لشديدٌ )[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : ( أنَّه كان لا يتركُ المرءَ مُفرَجاً ؛ حتىٰ يضمَّه إلىٰ قبيلةٍ يكون منها ) ، قال الرِّياشيُّ : ( والمُفرَج : الذي لا ينتمي إلىٰ قبيلة يكون منها )[2] .

كلُّ ذلك حثّ منه صلى الله عليه وسلم على الألفة ، وكفّ عن الفرقة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « مَن كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهو منهُمْ »[3] .

وإذا كان النسَب بهٰذه المنزلة من الألفة . . فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها ؛ فإذاً قد لزم أن نصف حال الأنساب وما يعرض لها من الأسباب .

وجملة الأنساب : أنها تنقسم ثلاثةَ أقسام : قسمٌ وَالدون ، وقسمٌ مولودون ، وقسمٌ مناسبون ، ولكلِّ صنفٍ منهم منزلةٌ في البرِّ والصلة ، وعارضٌ يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة .

فأمّا الوالدون : فهم الآباء والأمّهات ، والأجداد والجدّات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخُلقين ؛ أحدهما : لازمٌ بالطبع ، والثاني : حادثٌ باكتساب .

فأمّا ما كان لازماً بالطبع : فهو الحذر والإشفاق ؛ وذلك لا ينتقل عن الوالد

---

= اليقين » ( ص ٢٦٢ ) : ( يعني الله عز وجل : تفسير ومدرج في الحديث ، فما وقع من نسخ المتون : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » لربط آخر الحديث بأوله ، لا لأنه حديث آخر ؛ كما رواه الحاكم [٢/ ٥٦١] عن أبي هريرة بتمامه وصححه ) .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » ( ٧/ ١٢/ ١١٠ ) .

(٢) رواه الطبراني بنحوه في « المعجم الكبير » ( ١٧/ ٢٤ ) ، والديلمي في « الفردوس » ( ٧٨٥٥ ) عن سيدنا عمرو بن عوف رضي الله عنه ، وفي ( ج ) : ( مُفرَحاً ) وقد روي الحديث بالوجهين ، والمُفرَح : المُثقَل بالدَّين . انظر « تصحيفات المحدّثين » ( ١/ ١٦٠ ) وما بعدها .

(٣) أورده الديلمي في « الفردوس » ( ٥٦٢١ ) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

بحال[1] ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لكلِّ شيءٍ ثَمرةٌ ، وثمَرةُ القلبِ الولدُ** »[2] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الولدُ مَبخَلةٌ مَجهَلةٌ ، مَجبَنةٌ مَحزَنةٌ** »[3] فأخبر أنَّ الحذر عليه يكسب هـٰذه الأوصاف ، ويحدث هـٰذه الأخلاق .

**وقد كره قومٌ طلبَ الولدِ** كراهةً لهـٰذه الحال التي لا يقدر علىٰ دفعها عن نفسه ؛ للزومها طبعاً ، وحدوثها حتماً .

قيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام : ما بالُك تكره الولد ؟ فقال : ( **ما لي وللولد ؟ إن عاش . . كدَّني ، وإن مات . . هدَّني** )[4] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليهما السلام : ألا تتزوَّجُ ؟ فقال : ( **إنَّما يُحَبُّ التكثُّرُ في دار البقاء** )[5] .

**وأمّا ما كان حادثاً باكتسابٍ** : فهي المحبّة التي تنمي مع الأوقات ، وتتغيَّر مع تغيُّر الحالات ؛ وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الولدُ أَلوَطُ** »[6] ، يعني : أن حبَّه يلتصق بنياط القلب .

**فإن انصرف الوالد عن حب الولد . . فليس ذلك لبغضة منه** ؛ ولـٰكن لسَلْوةٍ حدثَتْ من عقوقٍ أو تقصيرٍ مع بقاء الحذر والإشفاق الذي لا يزول عنه ، ولا ينتقل منه ، وقد قال محمد بن علي[7] : ( **إنَّ الله تعالىٰ رضي الآباءَ للأبناء ،**

---

(١) في ( أ ) : ( عن الولد بحال ) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » ( ٥٣٧٩ ) ، والديلمي في « الفردوس » ( ٧٧٩ ) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٣/ ٢٩٦ ) عن سيدنا الأسود بن خلف القرشي رضي الله عنه .

(٤) أورده في « تحسين القبيح وتقبيح الحسن » ( ص ١٠٦ ) من قول السيد المسيح عليه السلام ، وفي « ربيع الأبرار » ( ٤/ ٤٦٢ ) دون نسبة .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » ( ٩/ ٢٢٤ ) بنحوه .

(٦) رواه البخاري في « الأدب المفرد » ( ٨٤ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٤٤/ ٢٤٧ ) من قول سيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، وفي ( أ ) : ( الولد أنوط ) .

(٧) هو سيدنا محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنهم .

فحذَّرهم فتنتَهم ، ولم يُوصِهم بهم ، ولم يرضَ الأبناءَ للآباء ، فأوصاهم بهم ، وإنَّ شرَّ الأبناء : مَن دعاه التقصيرُ إلى العقوق ، وشرَّ الآباء : مَن دعاه البرُّ إلى الإفراط )[1] .

والأمّهاتُ أكثرُ إشفاقاً ، وأوفرُ حبّاً ؛ لما باشرنَ من الولادة ، وعانينَ من التربية ، وأنَّهنَّ أرقُّ قلوباً ، وألينُ نفوساً ، وبحسَب ذلك وجب أن يكون التعطُّفُ من الأبناء عليهنَّ أكثرَ ، والبرُّ لهنَّ أوفرَ ؛ جزاءً لفعلهنَّ ، وكِفاءً لحقِّهنَّ وإن كان الله تعالىٰ قد أشرك بينهما في البرِّ ، وجمع بينهما في الوصية ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ .

وقد رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنَّ لي أمّاً أنا مَطيّتُها ، أُقعِدُها علىٰ ظهري ، ولا أصرف عنها وجهي ، وأردُّ إليها كسبي ، فهل جزيتُها ؟ قال : « لا ، ولا بزَفرةٍ واحدة » ، قال : ولِمَ ؟ قال : « لأنَّها كانت تخدمُك وهي تحبُّ حياتَكَ ، وأنتَ تخدمُها وتحبُّ موتَها »[2] .

وقال الحسن البصري : ( حقُّ الوالد أعظمُ ، وبرُّ الوالدة ألزمُ )[3] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَنهاكُم عن عُقوقِ الأمَّهاتِ ، ووَأْدِ البناتِ ، ومنَعَ وهاتِ »[4] .

وروىٰ خالد بن معدان ، عن المقدام قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ،

---

(١) كذا أورده في « بهجة المجالس » ( ١/ ٧٦٦ ) لمحمد الباقر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ٨٣٠٤ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ١٩/ ٤٦٥ ) لزيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم .

(٢) رواه بنحوه البخاري في « الأدب المفرد » ( ١١ ) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » ( ٢٢١ ) ، وابن وهب في « الجامع في الحديث » ( ٩٠ ) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه البزار ( ٤٣٨٠ ) عن سيدنا بريدة رضي الله عنه مرفوعاً مختصراً .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » ( ١/ ٦٨٤ ) .

(٤) رواه البخاري بنحوه ( ٢٤٠٨ ) ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ( ٥٩٣ ) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

ثمَّ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بآبائكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بالأقربِ فالأقربِ »[1] .

**وأمّا المولودون** : فهم الأولاد وأولاد الأولاد ، **والعرب تسمي ولد الولد الصَّفْوة** ؛ وهم مختصُّون مع سلامة أحوالهم بخُلقين : **أحدهما لازم ، والآخر منتقل** .

**فأمّا اللازمُ : فهو الأنَفة للآباء** من تهضُّم أو خُمول ، **والأنَفة في الأبناء** في مقابلة الإشفـاق في الآباء ، وقد لحظ أبو تمام الطائيُّ ذلك في شعره فقال[2] : [من الطويل]

فأصبحتُ يَلقاني الزَّمانُ مِنَ أجلِهِ ... بـإعظـامِ مَـولُـودٍ وإشفـاقِ والـدِ

**وأمّا المنتقلُ : فهو الإدلال** ، وهو أوّل حال الولد ، **والإدلال في الأبناء في** مقابلة المحبّة في الآباء ؛ لأنَّ المحبة بالآباء أخصُّ ، والإدلالَ بالأبناء أمسُّ .

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ **ما بالُنا نَرِقُّ علىٰ أولادنا ، ولا يَرِقُّونَ علينا** ؟ قال : « **لأنّا وَلَدْناهُم ، ولم يَلِدُونا** »[3] .

**ثم إنَّ الإدلال في الأبناء** قد ينتقل مع الكِبَر إلىٰ **أحد أمرين** ؛ إمّا **إلى البرِّ والإعظام** ، وإمّا **إلى الجَفاء والعُقوق** .

**فإنْ كان الولد رشيداً** وكان الأب برّاً عَطوفاً . . **صار الإدلالُ بِرّاً وإعظاماً** ، وقد روى الزهري ، عن عامر بن شَراحِيل[4] : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله : « **إنَّ حقَّ الوالدِ على الولدِ** أنْ يخشعَ له عندَ الغضَبِ ، ويؤثِرَهُ

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » ( ٦٠ ) ، وابن ماجه ( ٣٦٦١ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٧٤٦١ ) .

(٢) البيت في « ديوانه » ( ٢/ ٧٣ ) .

(٣) قال في « منهاج اليقين » ( ص ٢٦٥ ) : ( وقيل لبعض الحكماء : **لأي شيءٍ نحب أولادنا ولا يحبوننا ؟!** قال : **لأن آدم لم يكن له أب حتىٰ يحبه** ، وورث منه بنوه ذلك !! ) .

(٤) وهو المشهور **بالشعبي** رحمه الله تعالىٰ .

علىٰ نفسه عندَ السَّغابة والنَّصَب ؛ فإنَّ المكافىءَ ليس بالواصلِ ، ولٰكنَّ الواصلَ مَن إذا قطعَتْ رَحِمُه . . وصلَها »[1] .

وإن كان الولد غاوياً ، أو كان الوالد جافياً . . صار الإدلالُ قطيعة وعُقوقاً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « رحِمَ اللهُ امرأً أعانَ ولدَهُ علىٰ برِّهِ »[2] .

وبُشِّر عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه بمولودٍ فقال : ( رَيحانةٌ أَشَمُّها ، ثم هو عن قريبٍ : ولدٌ بارٌّ ، أو عدوٌّ ضارٌّ )[3] .

وقد قيل في منثور الحكم : ( العُقوقُ ثُكْلُ مَن لم يثكَلْ )[4] .

وقال بعض الحكماء : ( ابنُك ريحانُك سبعاً ، وخادمُك سبعاً ، ووزيرُك سبعاً ، ثم هو صديقٌ أو عدوٌّ )[5] .

وأمّا المُناسِبون : فهم مَن عدا الآباءَ والأبناءَ ممَّن يُرجع بتعصيبٍ أو رحِم ، والذي يختصُّون به الحَميّةُ الباعثة على النُّصرة ، وهي أدنىٰ رتبةً من الأنَفة ؛ لأنَّ الأنَفة تمنع من التهضُّم والخمول معاً ، والحَميّة تمنع من التهضُّم ، وليس لها في كراهية الخمول نصيبٌ إلا أن يقترنَ بها ما يبعث على الأنفة .

وحميّةُ المُناسِبين : إنَّما تدعو إلى النُّصرة على البُعَداء الأجانب ، وهي معرَّضةٌ لحسد الأداني والأقارب ، موكولةٌ إلىٰ منافسة الضاوي والصاحب[6] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأحاديث الطوال » ( ٣ ) ، وابن شبة في « تاريخ المدينة المنورة » ( ٢/ ٥٦٧ ) من طريق أخرىٰ موصولاً ، والسغابة والنصب : الجوع وعدم كفاية المؤونة فيقدم الولدُ والدَه علىٰ نفسه ، وقطعت : روي مبنياً للفاعل والمفعول . والحاصل من أقسامه ثلاثة : مواصل ومكافىء وقاطع ؛ فالمواصل : من يتفضل ولا يُتفضل عليه ، والمكافىء : الذي لا يزيد في الإعطاء علىٰ ما يأخذ ، والقاطع : الذي يُتفضل عليه ولا يتفضل . انظر « منهاج اليقين » ( ص ٢٦٦ ) بتصرف .

(٢) رواه السلميّ في « آداب الصحبة » ( ١٣٧ ) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ( ٢٥٩٢٤ ) عن الشعبي ، وابن وهب في « الجامع في الحديث » ( ١٣٨ ) عن عطاء رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » ( ٣/ ٢٨٥ ) ، و« التذكرة الحمدونية » ( ٤/ ٢٧٣ ) .

(٤) أورده أبو عبيد في « الأمثال » ( ص ١٤٨ ) ، و« ربيع الأبرار » ( ٤/ ٤٥٨ ) من قول أوس بن حارثة ، ومعناه : العقوق فقدان ولد لمن لم يفقده ، وقالوا : ( إن العقوق أحد الثكلين ؛ ولرُبَّ عقمٍ أقر للعين ) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » ( ٣/ ٩٤ ) ، و« التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٥٩ ) .

(٦) في ( ج ، د ، هـ ) : ( الصاحب بالصاحب ) .

**فإنْ حُرِست بالتواصل والتلاطف.. تأكّدت أسبابها**، واقترن بحميّة النسَب مصافاة المودّة؛ وذلك أوكدُ أسباب الألفة، وقد قيل لبعض قريش: ( **أيُّما أحبُّ إليك**؛ أخوك أو صديقُك؟ فقال: **أخي إذا كان صديقاً** )[1].

وقال مسلمة بن عبد الملك: ( **العيشُ في ثلاث**: سَعةِ المنزل، وكثرةِ الخدَم، وموافقةِ الأهل )[2].

وقال بعض الحكماء: ( **البعيد** قريب بمودّته، **والقريب** بعيد بعداوته )[3].

**وإنْ أُهمِلَتِ الحالُ** بين **المُناسِبين**؛ ثقةً بلُحْمة النسب، واعتماداً علىٰ حميّة القرابة.. غلب عليها مقتُ الحسد، أو منازعةُ التنافس، **فصارت المناسبة عداوة**، والقرابة تباعداً.

وقال الكنديُّ في بعض رسائله: ( **الأبُ ربٌّ**، والولد كمَد، **والأخ فخّ**، والعمّ غمّ، والخال وَبال، **والأقارب عقارب** )[4].

وقال عبد الله بن المعتز[5]: [من الطويل]

لُحُومُهُمُ لَحْمِي وهُمْ يأكلُونَهُ ... وما داهياتُ المرءِ إلا أقارِبُهْ

**ومن أجل ذلك** أمر الله تعالىٰ بصلة الأرحام[6]، **وأثنىٰ علىٰ واصليها** فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، قال المفسرون: ( هي الرحم التي أمر الله تعالىٰ بوصلها، **ويخشون ربَّهم**: في قطعها، **ويخافون سوءَ الحساب**: في المعاقبة عليها )[7].

وقد روىٰ عبد الرحمـٰن بن عوف أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » ( ٦٤ )، وأورده في « الموشّىٰ » ( ص ٣١ ) من قول خالد بن صفوان.

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٧٠ )، و« بهجة المجالس » ( ٢/ ١٢٥ ).

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦٥ ).

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص٤٦٠ ).

(٥) البيت في « ديوانه » ( ١/ ٤٤٩ ).

(٦) **ومن أجل ذلك**؛ أي: لأجل كون حمية المناسبين تتأكد بالتواصل، وتنقطع بالإهمال.

(٧) أورده الطبري في « تفسيره » ( ٨/ ١٣/ ١٧٧ ).

« يقولُ الله عزَّ وجلَّ : أنا الرحمـٰنُ ، وهي الرَّحِمَ ، اشتقَقْتُ لها اسماً من اسمي ، فمَن وصلَها . . وصلْتُه ، ومَن قطعَها . . قطعْتُه »[1] .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صِلةُ الرَّحِمِ : مَنماةٌ للعدد ، مَثراةٌ للمال ، مَحبةٌ في الأهل ، مَنسأةٌ في الأجَل »[2] .

وقال بعض الحكماء : ( بُلُّوا أرحامَكم بالحُقوق ، ولا تُجفُّوها بالعُقوق ) .

وقال بعضُ البلغاء : ( صِلُوا أرحامَكم ؛ فإنَّه لا تبلىٰ عليها أصولُكم ، ولا تهتضم عليها فروعُكم ) .

وقال بعض الأدباء : ( مَن لم يصلُحْ لأهله . . لم يصلُحْ لكَ ، ومَن لم يذبَّ عنهم . . لم يذبَّ عنكَ ) .

وقال بعض الفصحاء : ( مَن وصل رحمَه . . وصله الله تعالىٰ ورحمه ، ومَن أجار جارَه . . أعانه الله وأجاره )[3] .

وقال محمد بن عبد الله الأزديّ[4] : [من الطويل]

وحسْبُكَ من ذلٍّ وسوءِ صَنيعةٍ مُناواةُ ذي القُربىٰ وأنْ قيلَ قاطعُ
ولٰكنْ أُواسِيهِ وأنسىٰ ذُنوبَهُ لترجِعَهُ يوماً إليَّ الرَّواجعُ

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[5] : [من الطويل]

ولا يستوي في الحكمِ عبدانِ واصلٌ وعبدٌ لأرحامِ القرابةِ قاطعُ

---

(١) رواه أبو داوود ( ١٦٩٤ ) ، والترمذي ( ١٩٠٧ ) ، والمعنىٰ : إن الرحم أثر من آثار الرحمة ، مشتبكة بها ، فالقاطع لها منقطعٌ من رحمة الله ، وليس المعنىٰ : أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقوله : ( وصلْتُه ) كناية عن عظيم إحسانه بعبده .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٤/ ١٦١ ) ، والترمذي ( ١٩٧٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) انظر « الكليات » ( ١/ ٥٥ ) ، و« فيض القدير » ( ٥/ ٤٦٢ ) .

(٤) أورد البيتين المرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » ( ١/ ٤٠٤ ) ، و« التذكرة الحمدونية » ( ١/ ٣٧٤ ) ، ومن ذل : ( من ) : زائدة ، و( ذلٌ ) : تمييز من النسبة ، وأن قيل : ( أن ) مصدرية ؛ والمعنىٰ : يكفيك ذلاً وسوء صنيعة مباعدةُ الأقارب وقولُ الناس : هو قاطع عاق ، فواهاً لك .

(٥) أورده في « تاريخ دمشق » ( ٥٧/ ٢٧٤ ) ، و« الحلّة السيراء » ( ١/ ٢٨ ) .

**وأمّا المصاهرةُ** وهي الثالثة من أسباب الألفة . . فلأنَّها **استحداث مواصلة ، وتمازج مناسبة** ، صدَرا عن رغبةٍ واختيار ، وانعقدا عن خبرةٍ وإيثار ، **فاجتمع فيهما** أسبابُ الألفة ، وموادُّ المصاهرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني **بالمودّة** : المحبَّة ، **وبالرحمة** : الحنوَّ والشفقة ؛ وهما من أوكد أسباب الألفة .

وفيها تأويل آخر ـ قاله الحسن البصريُّ ـ : ( أنَّ **المودّة** : النكاح ، **والرحمة** : الولد )[1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ **فاختلف المفسرون في الحفدة** ؛ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ( **هم أصهار الرجل علىٰ بناته** )[2] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ( **هم ولد الرجل ، وولد ولده** ) .

**وحُكي عنه** : أنه قال : ( إنَّهم بنو امرأة الرجل من غيره )[3] .

**وسُمُّوا حفدة** ؛ لتحفُّدهم في الخدمة ، وسرعتهم في العمل ؛ ومنه قولهم في القنوت : ( **وإليكَ نسعىٰ ونحفِدُ** )[4] أي : نُسرع إلى العمل بطاعتك .

**ولم تزل العرب تجتذب البُعَداء** وتتألَّف الأعداء بالمصاهرة ، حتىٰ يرجع النافر مؤانِساً ، ويصير العدوُّ موالياً ، **بل يصير الصهر بين الاثنين ألفةً بين القبيلتين** ، وموالاةً بين العشيرتين .

وحُكي عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال : ( كان أبغض خلق الله إليَّ آل الزبير ؛ **حتىٰ تزوَّجتُ فيهم رملةَ** ، فصاروا أحبَّ خلق الله إليَّ ) وفيهم يقول : [من الطويل]

تجولُ خَلاخِيلُ النساءِ ولا أرىٰ    لِرَملةَ خَلْخالاً يجولُ ولا قُلْبا

---

(١) أورده أبو حيان في « البحر المحيط » ( ٧/١٦٦ ) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » ( ٨/١٤/١٧٥ ) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » ( ٧/٧٧ ) .
(٣) رواه الطبري في « تفسيره » ( ٨/١٤/١٧٩ ) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » ( ٢/٢١١ ) ، وعبد الرزاق ( ٤٩٦٨ ) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أُحِـبُّ بَنـي العَـوّامِ طُـرّاً لأجْلِهـا ومن أجْلِها أحبَبْتُ أخوالَها كَلْبا
فـإنْ تُسلِمـي نُسلِـمْ وإنْ تتنصَّـرِي يخـطُّ رِجـالٌ بيـنَ أعيُنِهـم صُلْبـا[1]

ولذلك قيل : ( **المرء علىٰ دين زوجته** ) لِما يستنزله الميلُ إليها من المتابعة ، ويجتذبه الحبُّ لها من الموافقة ، **فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً** ، ولا إلى المباينة والمُشاقَّة طريقاً .

وإذا كانت المصاهرة والنكاح بهـٰذه المنزلة من الألفة . . فقد يبتغىٰ **بعقدها أحد خمسة أوجه** ؛ وهي : المال ، والجمال ، والدِّين ، والألفة ، والتعفُّف .

وقد روىٰ سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تُنكَحُ المرأةُ لأربع** : لمالِها ، ولجَمالِها ، ولحسَبِها ، ولدِينِها ؛ **فٱظفَرْ بذاتِ الدِّينِ ، ترِبَتْ يداكَ** »[2] .

- **فإن كان عقدُ النكاح لأجل المال** ، وكان أقوى الدواعي إليه . . **فالمال إذاً هو المنكوح** ؛ **فإن اقترن بذلك أحدُ الأسباب** الباعثة على الائتلاف . . جاز أن يثبت العقدُ ، وتدوم الألفةُ .

**وإن تجرَّد عن غيره من الأسباب** ، وعري عمّا سواه من الموادّ . . **فأخلِق بالعقد أن ينحلَّ** ، وبالألفة أن تزول ، **لا سيَّما إذا غلب الطمع** ، وقلَّ الوفاء ؛ لأن المال إن وُصل إليه . . فقد تقضّىٰ سببُ الألفة به ؛ وقد قيل : ( **مَن ودَّك لأمرٍ . . ولّىٰ مع انقضائه** )[3] .

---

(1) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٦٩/ ١٢٩ـ ١٣٠ ) ، والمبرّد في « الكامل » ( ١/ ٤٥٠ ) ، وصُلباً : جمع : صليب ، والخطاب إلىٰ غير معين ، فالتفاته إلىٰ رملة ليست لخصوصية ذاتها ، بل باعتبار جنس النساء بقرينة ( رجال ) ، ونكتة الالتفات إلى الغيبة في قوله : ( **يخط رجال** ) والتوجيه إلىٰ غير مُعينٍ : تنزيه نفسه وإياها عن التنصُّر ، والتصريح بالبراءة عنه وإن كان مستتبعات التراكيب غير ملتفتٍ إليها ؛ **فالمعنىٰ** : وإن تنصَّرتُنَّ أيتها النساء . . يتبعكن رجال كثير يعلنون النصرانية بخط الصليب بين أعينهم ، فاتقين الله ولا تتسبَّبن بتنصرهم . انظر « منهاج اليقين » ( ص ٢٧٣ ) .
(2) رواه البخاري ( ٥٠٩٠ ) ، ومسلم ( ١٤٦٦ ) .
(3) أورده في « التذكرة الحمدونية » ( ١/ ٢٧٥ ) من قول الحسن بن محمد الجواد .

وإن أعوز الوصول إليه ، وتعذَّرت القدرة عليه . . أعقب ذلك استهانةَ الآيِسِ بعد شدّة الأمل ، فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع ، فصارت الوُصْلة فُرقةً ، والألفة عداوةً ، وقد قيل : ( مَن ودَّك طمعاً فيك . . أبغضك إذا أيِسَ منك ) .

وقال عبد الحميد : ( مَن أعظمك لاستقلالك . . استقلَّك عند إقلالك ) .

* * *

- وإن كان العقد رغبةً في الجمال . . فذلك أدوَمُ للألفة من المال ؛ لأن الجمال صفةٌ لازمة ، والمال صفةٌ زائلة ؛ ولذلك قيل : ( حُسنُ الصورة أوّلُ السعادة )[1] .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظمُ النِّساءِ بركةً : أحسنُهنَّ وَجْهاً ، وأقلُّهنَّ مَهْراً »[2] .

فإن سلمت الحال من الإدلال المُفضي إلى الملل . . استدامت الألفة ، واستحكمت الوُصْلة .

وقد كانوا يكرهون الجمال البارع ؛ إمّا لما يحدث عنه من شدّة الإدلال ، وقد قيل : ( مَن بسطه الإدلال . . قبضه الإذلال )[3] .

وإمّا لما يُخاف عليه من مِحَن الرغبة ، وبلوى المنازعة ؛ وقد حُكي : أن رجلاً شاور حكيماً في التزويج ، فقال : ( افعل ، وإيّاك والجمالَ البارع ؛ فإنَّه مرعىً أنيقٌ !! ) .

قال الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأوَّل : [من البسيط]

ولن تُصادِفَ مَرعىً مُمرِعاً أبداً ... إلا وجَـدتَ بـهِ آثـارَ مُنتجـعِ[4]

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٣٩٦ ) .

(٢) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » ( ١١٤٦ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) أورده المناوي في « فيض القدير » ( ١/ ٥٠ ) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » ( ٤/ ٩ ) ، و« محاضرات الأدباء » ( ٣/ ٣٩٧ ) ، ومرعىً أنيق : حسَنٌ مُعجِب ، والانتجاع : طلب الكلأ ، ويقال : انتجعت فلاناً ؛ أي : طلبت معروفه ، والحكيم قصد هـٰذا =

وإمّا لما يخافه اللبيب من شدة الصَّبْوة ، ويتوقّاه الحازم من عواقب الفتنة ؛ فقد قال بعض الحكماء : ( إيّاكَ ومخالطةَ النساء ؛ فإنَّ لَحْظَ المرأة سهمٌ ، ولفظَها سمٌّ ) .

ورأىٰ بعضُ الحكماء صيّاداً يكلِّم امرأة ، فقال : ( يا صيّاد ؛ احذر أن تُصاد )[1] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه : ( امشِ وراء الأسد ، ولا تمشِ وراء المرأة )[2] .

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه امرأةً تقول : [من البسيط]

إنَّ النساءَ رَياحينُ خُلِقْنَ لَكُمْ ... وكلُّكُم يشتهي شَمَّ الرياحينِ

فقال عمر رضي الله تعالىٰ عنه : [من البسيط]

إنَّ النساءَ شياطينُ خُلِقْنَ لنا ... نعوذُ بالله من شرِّ الشياطينِ[3]

ـ وإن كان العقد رغبةً في الدِّين . . فهو أوثَقُ العقود حالاً ، وأدومُها ألفة ، وأحمدها بدءاً وعاقبة ؛ لأن طالب الدِّين متبعٌ له ، ومَن اتبع الدِّين . . انقاد له ، فاستقامت حاله ، وانتظم أمره ، وأمن زلله ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ ، تربَتْ يداكَ »[4] ؛ وفيه تأويلان :

أحدهما : تربت يداك إن لم تظفر بذات الدِّين .

---

= المعنىٰ وإن كان السَّوق ظاهراً في المعنى الأول ، والبيت نسبه الجاحظ في « رسائله » ( ١ / ٣٤٤ ) للأحنف بن قيس ، وفي ( أ ) : ( آثار مأكول ) .

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » ( ص ١٥٥ ) من قول لقمان الحكيم .

(٢) رواه الإمام أحمد في « الزهد » ( ٢١٩ ) .

(٣) أورده المناوي في « فيض القدير » ( ٢ / ١٧٧ ) ، والبيت الأول أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٢١٨ ) ، ولعلها عرَّضت بشمها وهو محرم ؛ فلذلك استعاذ بالله من شرها .

(٤) رواه البخاري ( ٥٠٩٠ ) ، ومسلم ( ١٤٦٦ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

والثاني : أنَّها كلمةٌ تُذكَر للمبالغة ، ولا يراد بها سوء ؛ كقولهم : ما أشجعَه ، قاتلَه اللهُ ! !

وقيل : التأويلان أحدُهما يقتضي : استغنيتَ ، والثاني : افتقرتَ .

* * *

- وإن كان العقد رغبةً في الألفة . . فهـٰذا قد يكون علىٰ أحد وجهين :

إمّا أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين ، والمضافرة بتناصر الفئتين .

وإمّا أن يقصد به تألُّف أعداء متسلِّطين ؛ استكفافاً لعاديتهم ، وتسكيناً لصَولتهم .

وهـٰذان الوجهان قد يكونان في الأماثل ، وأهل المنازل ، وداعي الوجه الأول : هو الرغبة ، وداعي الوجه الثاني : هو الرهبة ؛ وهما سببان في غير المتناكحين .

فإن استدام السبب . . دامت الألفة ، وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة . . خِيفَ زوال الألفة ، إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها ، والمقترنة بها[1] .

* * *

- وإن كان العقد رغبةً في التعفُّف . . فهو الوجه الحقيقيّ المبتغىٰ بعقد النكاح ، وما سواه . . فأسبابٌ متعلِّقة عليه ، أو مضافةٌ إليه .

روي أنه لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « خُلِقَ الرَّجلُ منَ التُّرابِ ، فهمُّهُ في التُّرابِ ، وخُلِقَتِ المرأةُ منَ الرَّجلِ ، فهمُّها في الرَّجلِ »[2] .

---

(١) في ( ب ، د ) : ( والمقوّية لها ) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » ( ٤٧١٨ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٧٤١١ ) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، فهمه في التراب : بالزراعة فيها ، والبناء عليها ، والسير في مناكبها .

ورویٰ عطيّة بن بُسْر ، عن عَكّاف بن وَداعة الهلاليّ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له : « **يا عكّافُ ؛ أَلَكَ زوجةٌ ؟** » قال : لا ، قال : « **فأنت إذاً منْ إخوانِ الشياطينِ ؛ إنْ كنتَ من رُهْبانِ النَّصارىٰ . . فالحَقْ بهم ، وإنْ كنتَ منّا . . فإنَّ من سُنّتِنا النِّكاحَ** »[1] ، فكان هـٰذا القول منه حثّاً على التعفُّف عن الفساد ، وباعثاً علىٰ طلب المكاثرة بالأولاد .

ولهـٰذا المعنىٰ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول للقُفَّال من غزوهم : « **إذا أفضَيتُم إلىٰ نسائِكُم . . فالكَيْسَ الكَيْسَ** »[2] يعني : في طلب الولد .

فلزم حينئذٍ في عقد التعفُّف : تحكيمُ الاختيار فيه ، والتماسُ الأدوم من دواعيه ، وهي نوعان : نوعٌ يمكن حصر شروطه ، ونوعٌ لا يمكن ؛ لاختلاف أسبابه ، وتغاير شروطه .

فأمّا الشروطُ المحصورة فيه : فثلاثة شروط :

أحدها : الدِّين المُفضي إلى الستر والعفاف ، المؤدِّي إلى القناعة والكفاف ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : « **لا يَفرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً ؛ إنْ كرِهَ منها خُلُقاً . . رضيَ خُلُقاً** »[3] .

وخطب رجلٌ من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يتيمةً كانت عنده ، فقال : ( **لا أرضاها لكَ** ) قال : ولمَ وفي دارك نشأتْ ؟! قال : ( **إنّها تتشرَّفُ** ) قال : لا أُبالي ، قال : ( **الآنَ لا أرضاكَ لها** )[4] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ( ٥٠٩٤ ) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » ( ٦٨٥٦ ) .

(٢) رواه البخاري ( ٢٠٩٧ ) ، ومسلم ( ٧١٥ ) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) رواه مسلم ( ١٤٦٩ ) مرفوعاً ، ولا يفرَكْ : لا يُبغِضْ .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » ( ٤/١٦ ) ، وتتشرَّف : تتطلّع وتنظر ، ولا أرضاك لها : كأنه تفرس فيه أن نكاحه نكاحُ غلمةٍ فردَّه .

وفي معنىٰ هـٰذا قولُ بعض الحكماء : ( مَن رضي بصُحبة مَن لا خيرَ فيه . . **لم يرضَ بصُحبته مَن فيه خيرٌ** )[1] .

والشرط الثاني : **العقل الباعث علىٰ حسن التقدير** ، الآمر بصواب التدبير ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **العقلُ حيثُ كان أَلُوفٌ مألوفٌ** »[2] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **عليكُم بالوَدُودِ الوَلُودِ** ، ولا تنكِحُوا الحَمْقاءَ ؛ فإنَّ صُحبتَها بلاءٌ ، وولدَها ضياعٌ »[3] .

والشرط الثالث : **الأكفاء الذين ينتفي بهم العار** ، ويحصل بهم الاستكثار ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تخيَّرُوا لنُطَفِكُم ، ولا تضَعُوها إلا في الأكْفاءِ** »[4] .

وقال أكثمُ بن صيفيّ لوُلْده : ( **يا بَنيَّ ؛ لا يحملنَّكم جمالُ النساء عن صراحة النسَب** ؛ فإنَّ المناكح اللئيمة مَدرجةٌ للسَّرَف ، والكريمة مَدرجةٌ للشرف )[5] .

وقال أبو الأسود الدؤلي لبَنيه : ( **قد أحسنتُ إليكم صغاراً** ، وكباراً ، وقبل أن تُولَدوا ، قالوا : وكيف أحسنتَ إلينا قبل أن نُولَد ؟! قال : **اخترتُ لكم من الأمّهات مَن لا تُشنَؤون بها** )[6] .

وأنشد الرِّياشيُّ : [من الطويل]

فأَوَّلُ إحسانـي إليكـم تَخيُّـري  لمـاجِـدةِ الأَعْـراقِ بـادٍ عَفـافُهـا

---

(١) أورده الآبيُّ في « نثر الدرّ » ( ٤/ ٢٣٠ ) ، و« ربيع الأبرار » ( ١/ ٤٥٥ ) .
(٢) رواه ابن عساكر بنحوه في « تاريخ دمشق » ( ٨/ ٤٠٤ ) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو داوود ( ٢٠٥٠ ) عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « الفردوس » ( ٧٣٣٣ ) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٢/ ١٦٣ ) ، وابن ماجه ( ١٩٦٨ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٣٦ ) ، و« المعمَّرون والوصايا » ( ص ١٥ ) .
(٦) أورده في « بهجة المجالس » ( ٢/ ٣٢ ) ، و« ربيع الأبرار » ( ٥/ ٣٠٦ ) .

وقد ينضمُّ إلىٰ هـٰذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس ما يلزم التحرُّز منه ؛ لبُعد الخير عنه ، وقلّة الرشد فيه ؛ فإنَّ كوامن الأخلاق باديةٌ في الصور والأشكال ؛ كالذي رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة : « أتزوَّجتَ يا زيدُ ؟ » قال : لا ، قال : « تزوَّجْ . . تستعفِفْ معَ عِفّتك ، ولا تتزوَّجْ منَ النساءِ خمساً » قال : وما هنَّ يا رسولَ الله ؟

قال : « **لا تتزوَّجْ شَهْبَرةً ، ولا لَهْبَرةً ، ولا نَهْبَرةً ، ولا هَنْدَرةً ، ولا لَفُوتاً** » .

قال : يا رسولَ الله ؛ ما أعرفُ ممّا قلتَ شيئاً !!

قال : « **أمّا الشَّهْبَرةُ** : فالزرقاء البَذيّة ، **وأمّا اللَّهْبَرةُ** : فالطويلة المهزولة ، **وأمّا النَّهْبَرةُ** : فالعجوز المُدبِرة ، **وأمّا الهَنْدَرةُ** : فالقصيرة الذميمة ، **وأمّا اللَّفُوتُ** : فذاتُ الولد من غيرك »[(١)] .

وقال شيخٌ من بني سُلَيم لابنه : ( **يا بنيَّ ؛ إيّاكَ والرَّقُوبَ الغَضُوبَ القَطُوبَ** ) . **الرَّقُوب** : التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله[(٢)] .

وأوصىٰ بعض الأعراب ابناً له في التزويج ، فقال : ( إيّاكَ والحَنّانةَ والمَنّانةَ والأنّانةَ ؛ **فالحنّانة** : التي تحنُّ إلىٰ زوجٍ كان لها ، **والمَنّانة** : التي تمنُّ علىٰ زوجها بمالِها ، **والأنّانة** : التي تئنُّ كسَلاً وتمارُضاً )[(٣)] .

وقال أوفى بن دَلْهَم : ( **النساء أربع : فمنهنَّ مَعْمَع** ، لها شيئُها أجمع ، **ومنهنَّ تَبَع** ، ترىٰ ولا تنفع ، **ومنهنَّ صَدَع** ، تفرِّق ولا تجمع ، **ومنهنَّ غيثٌ وقع** ، ببلدٍ فأمرع )[(٤)] .

وقال الشاعر[(٥)] : [من الطويل]

أرىٰ صاحبَ النِّسوانِ يحسبُ أنَّها ... سـواءٌ وبَـوْنٌ بينَهـنَّ بعيـدُ

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » ( ٨٥٦١ ) .
(٢) أورده في « مجالس ثعلب » ( ١/ ٢١٤ ) .
(٣) أورده في « مجالس ثعلب » ( ١/ ٢١٤ ) ، والجاحظ في « المحاسن والأضداد » ( ص ١٤٧ ) .
(٤) أورده القالي في « ذيل الأمالي » ( ٣/ ١٢٦ ) ، والمبرّد في « الكامل » ( ٣/ ١٤٤٢ ) ، و« عيون الأخبار » ( ٤/ ٣ ) .
(٥) رواه في « الطيوريّات » ( ١٢٢٦ ) لابن شُبْرُمة .

فمنهـنَّ جنّـاتٌ تَفـيءُ ظِـلالُهـا ومنهـنَّ نِيـرانٌ لهـنَّ وَقـودُ

وأنشد أبو العيناء عن أبي زيد[1] : [من البسيط]

إنَّ النسـاءَ كـأشجـارٍ نبَتْـنَ معـاً منهـنَّ مُـرٌّ وبعـضُ المُـرِّ مـأكـولُ
إنَّ النساءَ ولو صُوِّرْنَ من ذهبٍ فيهنَّ من هفَواتِ الجهْلِ تخييلُ
إنَّ النسـاءَ متىٰ يُنهَيْـنَ عـن خُلُـقٍ فـإنَّـه واجـبٌ لا بـدَّ مفعـولُ
ومـا وعَـدْنَـكَ مـن شـرٍّ وفَيْـنَ بـهِ ومـا وعَـدْنَـكَ مـن خيـرٍ فممطـولُ

**وأمّا النوعُ الآخر . . فهو ما لا يمكن حصرُ شروطه** ؛ لأنه قد يختلف باختلاف الأحوال ، وينتقل بتنقُّل الإنسان والأزمان ، فإنه لا يُستغنىٰ فيه عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ؛ ليكون أدومَ لحال الألفة ، وأمدَّ لأسباب الوُصْلة ؛ **فإنَّ الرأي المعلول لا يبقىٰ علىٰ حاله** ، والميل المدخول لا يدوم علىٰ دَخَله ، **ولا بدَّ أن ينتقل إلىٰ إحدىٰ حالتين** ؛ إمّا إلى الزيادة والكمال ، وإمّا إلى النقصان والزوال .

**حُكي** : أن رجلاً قال لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : **إنِّي أحبُّك وأحبُّ معاوية** ، فقال عليّ عليه السلام : ( **أمّا الآن . . فأنت أعورُ ؛ فإمّا أن تبرأَ ، وإمّا أن تعمىٰ** )[2] .

وإذا كان كذلك . . فلا بدَّ من كشف السبب الباعث علىٰ هـٰذا النوع ؛ فإنه **لا يخلو من ثلاثة أحوال** :

**أحدها** : أن يكون لطلب الولد ، **فالأحمدُ فيه** : التماسُ الحداثة والبكارة ؛ لأنها أخصُّ بالولادة ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **عليكم**

---

(١) أورد الأبيات الثلاثة الأولىٰ في « الأغاني » ( ١٧/ ٦٠٤٢ ) لمالك بن عمرو الخزرجيّ ، والبيتان الأول والثالث في « ديوان طفيل الغنَويّ » ( ص ٨٢ ) ، وما عدا البيت الثاني في « ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات » ( ص ١٦٤ ) .

(٢) **فأنت أعور** : كالأعور في رؤيتك الإمامة ـ التي لا تكون إلا واحدة ـ متعددةً ، وأراد بالأعور الأحول ؛ لأن تلك الرؤية من لوازم الحول الجعلي .

**بالأبكارِ ؛ فإنَّهنَّ أعذَبُ أفواهاً ، وأنتَقُ أرحاماً ، وأرضىٰ باليَسيرِ »**[1] ، ومعنىٰ قوله : ( **أنتقُ أرحاماً** ) أي : أكثرُ أولاداً .

وقال معاذ بن جبل : ( عليكم بالأبكار ؛ **فإنَّهنَّ أكثرُ حبّاً ، وأقلُّ خبّاً** )[2] .

**وهـٰذه الحال هي أَولى الأحوال الثلاث** ؛ لأنَّ النكاح موضوع لها ، والشرع واردٌ بها ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **سوداءُ وَلُودٌ خيرٌ من حسناءَ عاقرٍ** »[3] .

والعرب تقول : ( **مَن لم يلِدْ . . فلا وُلِدَ ! !** )[4] .

وقد كانوا **يختارون** لمثل هـٰذه الحال **نكاحَ البُعَداء الأجانب** ، ويَرَونَ ذلك أنجبَ للولد ، وأبهىٰ لخَلْقه ، **ويجتنبون نكاحَ الأهل والأقارب** ، ويرونه مُضوِياً لخَلْق الولد ، بعيداً من نَجابته ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **اغترِبُوا . . لا تُضوُوا** »[5] .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : ( **يا بَني السائبِ ؛ قد أضوَيتُم ، فانكِحُوا في الغرائب** )[6] .

---

(١) رواه ابن ماجه ( ١٨٦١ ) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » ( ٧/ ٨١ ) عن سيدنا عُوَيم بن ساعدة رضي الله عنه ، وأعذب أفواهاً : أحلىٰ كلاماً ؛ لعدم تعودهن فحش الكلام بمخالطة الرجال ، أو أطيب ريقاً .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » ( ١٧٩٩١ ) من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » ( ٧٦٧٣ ) عن سيدنا جابر رضي الله عنه ، وأقل خباً : خداعاً ومكراً ، علىٰ أنه لم يدنسها لامس ، ولا استغشاها لابس ، ولها الوجه الحيي ، والطرف الخفي ، واللسان العيي ، والقلب النقي .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » ( ١٩/ ٤١٦ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ١٤/ ٥٠ ) عن سيدنا معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٢٢١ ) ، وزاد فيه : ( ومن لم يشتر . . فلا عبدَ ) .

(٥) أورده الحربيّ في « غريب الحديث » ( ٢/ ٣٧٩ ) ، و« عيون الأخبار » ( ٢/ ٦٧ ) من كلام العرب ، ولا تُضوُوا : لا تأتوا بأولاد مهازيل ضاوين . ونقل في « منهاج اليقين » ( ص ٢٨٤ ) عن القسطلاني قوله : ( وتوقف السبكي في هـٰذا الحكم ؛ لعدم صحة الحديث الدال عليه ؛ فقد قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قال السبكي : فلا ينبغي إثباته لعدم الدليل . وقال الحافظ زين الدين العراقي : والحديث المذكور إنما يعرف من قول عمر ) رضي الله عنه وأرضاه .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » ( ١٤٣٧ ) ، و« عيون الأخبار » ( ٢/ ٦٦ ) .

وقال الشاعر : [من الطويل]

تجاوزتُ بنتَ العمِّ وَهْيَ حبيبةٌ مَخافةَ أنْ تُضوي عليَّ سَلِيلي

وكان حكماء المتقدِّمين يرون أن **أنجب الأولاد خَلقاً وخُلقاً** : مَن كانت سنُّ أمِّه ما بين العشرين والثلاثين ، وسنُّ أبيه ما بين الثلاثين والخمسين .

والعرب تقول : ( **إنَّ ولد الغيرىٰ لا ينجُبُ** ، وإنَّ أنجبَ النساءِ الفَرُوكُ )(١) لأنَّ الرجل يغلبها على الشبه ؛ لزهدها في الرجال .

وقالوا : ( **إن الرجل إذا أكره المرأةَ وهي مذعورةٌ ، ثم أُذكِرتْ . . أنجبت** )(٢) .

**والحال الثانية** : أن يكون المقصود به القيامَ بما يتولاه النساء من تدبير المنازل ؛ **فهـٰذا وإن كان مختصّاً بمعاناة النساء** . . **فليست ألزمَ حالتي الزوجات** ؛ لأنه قد يجوز أن يعانيَه غيرُهنَّ من النساء ، ولذلك قيل : ( **المرأة ريحانة ، وليست بقَهْرَمانة** )(٣) .

وليس في هـٰذا القصد تأثيرٌ في دِين ، ولا قدحٌ في مروءة ، **والأحمدُ في مثل هـٰذا** : التماسُ ذوات الأسنان والحُنْكة ممَّن قد خَبِرت تدبير المنازل ، وعرفت عادات الرجال ، فإنهنَّ أقومُ بهـٰذه الحال .

**والحال الثالثة** : أن يكون المقصود به الاستمتاعَ ، **وهـٰذه أذمُّ الأحوال الثلاثة** ، وأوهنُها للمروءة ؛ **لأنَّه ينقاد فيه لأخلاقه البهيميّة** ، ويتابع شهواته الذميمة ، وقد قال الحارث بن النضر الأزديّ : ( **شرُّ النكاح نكاحُ الغُلْمة** ) .

---

(١) **الغيرىٰ** : الشرهة الراغبة ، **والفَرُوك** : العفيفة الزاهدة .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » ( ٢/ ٦٥ ) ، و« شرح ديوان الحماسة » ( ١/ ٨٧ ) ، **وأُذكرت** : بالبناء للمفعول ؛ يعني : جُومعت ، وأنجبت : لأن شهوتها لا تزيد علىٰ شهوته حينئذٍ ، وأيضاً يسكن غضبها بميل الزوج إليها وتطييب قلبها فتعلق به وهي كاظمة لغيظها ، وحالة الكظم تحرك القوى العقلية ، والغضب مع الكظم والتيقظ مادة النجابة ، وأيضاً الغضب يزيد حسن الجميلة ؛ وذلك يورث شدة حب زوجها .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٢١٥ ) ، و« عيون الأخبار » ( ١/ ١٧٠ ) من قول الحجّاج ، **والقهرمان** : الخازن والوكيل في الأمور .

إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالإضعاف لها عند الغلبة ، أو تسكين النفس عند المنازعة ؛ حتىٰ لا تطمحَ له عينٌ بريبة ، ولا تنازعه نفسٌ إلىٰ فجور ، ولا يلحقه في ذلك ذمٌّ ، ولا يناله وَصْمٌ ، وهو بالحمد أجدرُ ، وبالثناء أحقُّ .

ولو تنزَّه في مثل هٰذه الحال عن استبذال الحرائر إلى الإماء . . كان أكملَ لمروءته ، وأبلغ في صيانته .

وهٰذه الحال تقف علىٰ شهوات النفوس ، لا يمكن أن يرجح فيها أَولى الأمور ، ثم هي أخطر الأحوال بالمنكوحة ؛ لأنَّ للشهوات غاياتٍ متناهية ، يزول بزوالها ما كان متعلِّقاً بها ، فتصير الشهوة في الابتداء كراهيةً في الانتهاء ؛ ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهنَّ إشفاقاً عليهنَّ ، وحمية لهنَّ من أن يبتذلهنَّ اللئام بمثل هٰذه الحال ، وكان مَن تحوَّب من قتل البنات ؛ لرقّة أو محبّة . . كان موتُهنَّ أحبَّ إليه ، وآثرَ عنده .

خُطِب إلىٰ عَقيل بن عُلَّفةَ ابنته الجَرْباء ، فقال : [من مشطور الرجز]

إنِّـــي وإنْ سِيــقَ إلـــيَّ المَهْـــرُ
ألـــفٌ وعَبـــدانِ وذَوْدٌ عَشْـــرُ
أَحَـــبُّ أصهـــاري إلـــيَّ القَبْـــرُ[1]

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[2] : [من الطويل]

لكـلِّ أبـي بنـتٍ يُـراعـي شُـؤونَهـا ... ثـلاثـةُ أصهـارٍ إذا حُمِـدَ الصِّهْـرُ
فبَعْـلٌ يُـراعيهـا وخِـدْرٌ يُكِنُّهـا ... وقبـرٌ يُـواريهـا وخيـرُهُـمُ القَبْـرُ

(١) أورده في « زهر الآداب » ( ١/ ٤٨٤ ) ، و« بهجة المجالس » ( ١/ ٧٦٨ ) ، والجرباء : زوج يزيد بن عبد الملك ، سُمِّيت جرباء ؛ لأن النساء ينفرن عنها لتقبيحها بمحاسنها محاسنَهنَّ ، وكان أبوها شديد الغيرة .

(٢) أورده في « ديوان المعاني » ( ٢/ ٢٥١ ) ، و« زهر الآداب » ( ١/ ٤٨٤ ) .

## فصل

وأمّا المؤاخاةُ بالمودّة وهي الرابع من أسباب الألفة . . فلأنَّها تكسب بصادق الميل إخلاصاً ومصافاة ، وتحدث بخُلوص المصافاة وفاءً وافياً ، ومحاماة صافية ، وهٰذا أعلىٰ مراتب الألفة وعمدتُها ؛ لأنَّ أصلَ الألفة الصفاء ، ونتيجتها الوفاء ؛ ولذلك آخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ؛ لتزيد ألفتهم ، ويقوىٰ تضافرهم وتناصرهم .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بإخوان الصِّدق ؛ فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء ، وعِصمةٌ في البلاء »[1] .

وروىٰ أبو الزبير ، عن سهل بن سعدٍ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « المرءُ كثيرٌ بأخيه ، ولا خيرَ في صُحبة مَن لا يرىٰ لكَ منَ الحقِّ مثلَ ما ترىٰ له »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( لقاءُ الإخوان جلاءُ الأحزان )[3] .

وقال خالد بن صفوان : ( أعجزُ الناس : مَن قصَّر في طلب الإخوان ، وأعجزُ منه : مَن ضيَّع مَن ظفر به منهم )[4] .

وقال عليّ بن أبي طالب لابنه الحسن عليهما السلام : ( يا بنيَّ ؛ الغريبُ مَن ليس له حبيبٌ )[5] .

وقال ابن المعتزّ : ( مَن اتخذ إخواناً . . كانوا له أعواناً )[6] .

وقال بعض الأدباء : ( أفضلُ الذخائر أخٌ وفيٌّ ) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان »( ٧٩٩٢ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ١٠/ ٣٦٣ ) عن سيدنا عمر رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٢٤)، وأبو الشيخ في « جزء أحاديث أبي الزبير عن غير جابر » (٢٣).

(٣) أورده في « الموشّىٰ » ( ص ٢٦ ) .

(٤) أورده في « الموشّىٰ » ( ص ٢٤ ) .

(٥) أورده في « ربيع الأبرار » ( ٤/ ٤٣٤ ) ، و« شرح نهج البلاغة » ( ١٦/ ١١٣ ) .

(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦١ ) بدون نسبة .

وقال بعض البلغاء : ( صديقٌ مساعد عضدٌ وساعد ) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

هُمومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ وهمِّي منَ الدُّنيا صديقٌ مُساعِدُ
نكونُ كرُوحٍ بين جسمَين قُسِّما فجسماهما جسمانِ والرُّوحُ واحِدُ

وقيل : ( إنَّما سُمِّي الصديق صديقاً ؛ لصِدقه ، والعدوُّ عدوّاً ؛ لعَدْوه عليك )[2] .

وقال ثعلب : ( إنَّما سُمِّي الخليل خليلاً ؛ لأنَّ محبّته تتخلَّل القلبَ ، فلا تدعُ فيه خَلَلاً إلا ملأته ) ، وأنشد قولَ بشار : [من الخفيف]

قد تخلَّلْتِ مَسلكَ الرُّوحِ مِنِّي وبهِ سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا[3]

والمؤاخاة في الناس قد تكون علىٰ وجهين ؛ أحدهما : أخوةٌ مكتسبةٌ بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار ، والثاني : أخوةٌ مكتسبةٌ بالقصد والاختيار .

فأمّا المكتسبة بالاتفاق . . فهي أوكدُ حالاً ؛ لأنَّها تنعقد عن أسبابٍ تقود إليها .

والمكتسبة بالقصد تُعقَد لها أسبابٌ تُقاد إليها .

وما كان جارياً بالطبع . . فهو ألزمُ ممّا هو حادث بالقصد ، ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب بالاتفاق ، ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد .

أمّا المكتسب بالاتفاق : فله أسباب يبتدىء منها ، ثم ينتقل في غاية أحواله المحدودة إلىٰ مراتب سبع ، ربما يستكملهنَّ ، وربما وقف علىٰ بعضهنَّ ، ولكلِّ

---

(١) البيتان لسيدنا عليّ رضي الله عنه في « ديوانه » ( ص ١٠٢ ) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦٤ ) ، و« زهر الآداب » ( ٢/ ٨٣٣ ) من قول ابن المعتز .
(٣) أورده القرطبي في « تفسيره » ( ٥/ ٤٠٠ ) ، والبيت في « ديوان بشار » ( ٤/ ١٦١ ) ، وفي « ديوان البحتري » ( ٣/ ١٩١٢ ) .

مرتبةٍ من ذلك حكمٌ خاص ، وسببٌ موجِب ؛ كما قال الشاعر[1] : [من المديد]

مـــا هَــــوىً إلا لــــهُ سَبَـــبُ يَبتـــــدِي منـــــهُ ويَنشَعِـــبُ

فأول أسباب الإخاء : التجانس في حالٍ يجتمعان فيها ، ويأتلفان بها ؛ فإنْ قوي التجانس . . قوي الائتلاف به ، وإن ضعف . . كان ضعيفاً به ، ما لم تحدث علَّةٌ أخرىٰ يقوىٰ بها الائتلاف .

وإنَّما كان كذلك ؛ لأن الائتلاف بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس ، فإذا عدم التجانس من وجهٍ . . انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف ، فثبت أن التجانس ـ وإن تنوَّع ـ أصلٌ للإخاء ، وقاعدةٌ للائتلاف .

وقد روىٰ يحيى بن سعيد ، عن عَمْرَةَ ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواحُ جُنودٌ مُجنَّدةٌ ؛ فما تعارَفَ منها . . ائتلَفَ ، وما تناكَرَ منها . . اختلَفَ »[2] ، وهٰذا واضحٌ ، وهي بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة .

وقد قيل في منثور الحكم : ( الأضداد لا تتفق ، والأشكال لا تفترق )[3] .

وقال بعض الحكماء : ( بحسن تشاكل الإخوان يثبت التواصل ) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الطويل]

فـلا تحتقـرْ نفسـي وأنـتَ خَليلُهـا فكلُّ امرئٍ يَصبُو إلىٰ مَن يُجانسُ

وقال آخر[5] : [من الطويل]

فقلتُ أخي قالوا أخٌ مِن قَرابةٍ فقلـتُ لهُـمْ إنَّ الشُّكـولَ أقـارِبُ

---

(١) البيت لأبي نواس في « ديوانه » ( ص ٢٣٩ ) .

(٢) رواه البخاري ( ٣٣٣٦ ) .

(٣) ذكره الوطواط في « غرر الخصائص » ( ص ٣٤٩ ) .

(٤) أورد البيت ابن داوود الأصبهاني في « الزهرة » ( ١/ ١٦٩ ) لبعض أهل زمانه .

(٥) البيتان لأبي تمام في « ديوانه » ( ٤/ ٤١ ) ، والشُّكول : جمع شِكْل ؛ أي : بعضهم يشبه بعضاً .

نسيبيَ في رأيي وعَزمي وهِمَّتي وإنْ فرَّقَتْنا في الأصولِ المَناسِبُ

ثم يُحدِث التجانسُ **المواصلةَ** بين المتجانسين ؛ وهي **الرتبة الثانية** من رتب الإخاء ، **وسبب المواصلة بينهما** : وجودُ الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجةَ التجانس ، **والسبب فيه** : وجود الاتفاق ؛ **لأنَّ عدم الاتفاق منفِّرٌ** .

وقد قال الشاعر[1] : [من الكامل]

النـاسُ إنْ وافقتَهُـم عَـذُبُـوا أوْ لا فـإنَّ جَنـاهُـمُ مُـرُّ
كَـمْ مِـن رِيـاضٍ لا أنيـسَ بهـا تُـرِكَـتْ لأنَّ طـريقَهـا وَعْـرُ

ثم تحدث عن المواصلة **رتبةٌ ثالثة** ؛ وهي **المؤانسة** ، **وسببها** : الانبساط .

ثم تحدث عن المؤانسة **رتبةٌ رابعة** ؛ وهي **المصافاة** ، **وسببها** : خُلوص النيّة .

ثم تحدث عن المصافاة **رتبةٌ خامسة** ؛ وهي **المودّة** ، **وسببها** : الثقة ، وهٰذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء ، وما قبلها أسبابٌ تقود إليها ؛ فإن اقترن بها **المعاضدة** . . **فهي الصداقة** .

ثم تحدث عن المودَّة **رتبةٌ سادسة** ؛ وهي **المحبَّة** ، **وسببها** : الاستحسان .

**فإن كان سببُها** الاستحسانَ لفضائل النفس . . حدثت منه **رتبةٌ سابعة** ؛ وهي **الإعظام** ، **وإن كان الاستحسان** للصورة والحركات . . حدثت منه **رتبةٌ ثامنة** ؛ وهي **العشق** ، **وسببه** : الطمع[2] .

وقد قال المأمون[3] : [من الرمل]

أوَّلُ العِشْـقِ مُـزاحٌ ووَلَـعْ ثـمَّ يـزدادُ إذا زادَ الطَّمَـعْ
كـلُّ مَـن يهـوىٰ وإنْ غـالَـتْ بـهِ رتبـةُ الملـكِ لمَـن يهـوىٰ تَبَـعْ

---

(١) أورد البيتين في « ديوان المعاني » ( ٢/ ٢٣٩ ) ، وفيه : ( كم من رياض لا نظير لها ) ، و« نهاية الأرب » ( ٦/ ١٣١ ) ، عذُبوا : بضم الذال ؛ أي : صاروا عذباً طيباً ومُستاغاً .

(٢) يلاحظ أن الرتبتين الأخيرتين حالتان للرتبة التي تتلو رتبة ( المحبّة ) ، وبذلك تكون الرتب سبعاً كما أراد المؤلف رحمه الله تعالىٰ ، والله أعلم .

(٣) أورد البيتين في « مصارع العشّاق » ( ٢/ ١٦٧ ) ؛ وفي ( أ ) : ( كل من يهوىٰ وإن عَالَتْ به . . . ) .

وهـٰذه الرتبة هي آخر الرتب المحدودة ، وليس لما جاوزها رتبةٌ مقدَّرة ، ولا حالٌ محدودة ؛ لأنَّها قد تَؤول إلىٰ ممازجة النفوس وإن تميَّزت ذواتها ، وتفضي إلىٰ مخالطة الأرواح وإن تفارقت أجسادها ، وهـٰذه حالٌ لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها .

وقد قال الكنديُّ : ( الصديقُ إنسانٌ هو أنت إلا أنه غيرُك )[1] .

ومثل هـٰذا القول يُحكىٰ عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه في عمر رضي الله تعالىٰ عنه حين أقطع طلحةَ بن عبيد الله أرضاً ، وكتب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً منهم عمر ، فأتىٰ طلحةُ بكتابه إلىٰ عمر ليختمه فامتنع عليه ، فرجع طلحة مغضَباً إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه وقال : ( واللهِ ؛ ما أدري أأنتَ الخليفةُ أم عمرُ ؟! ) ، فقال : ( بل عمرُ ، لـٰكنَّه أنا ) رضي الله تعالىٰ عنهم[2] .

* * *

وأمّا المكتسبة بالقصد : فلا بدَّ لها من داعٍ يدعو إليها ، وباعثٍ يبعث عليها ؛ وذلك من وجهين : رغبة ، وفاقة .

ـ فأمّا الرغبةُ : فهو أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث علىٰ إخائه ، ويتوسَّم بجميلٍ يدعو إلى اصطفائه .

وهـٰذه الحال أقوىٰ من التي بعدها ؛ لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلُّفٍ لطلبها ، وإنَّما يخاف عليها من الاغترار بالتصنُّع لها ؛ فليس كلُّ مَن أظهر الخير كان من أهله ، ولا كلُّ مَن تخلَّق بالحسنىٰ كان في طبعه ، والمتكلِّف للشيء مُنافٍ له إلا أن يدوم عليه مستحسِناً له في العقل ، أو متديِّناً به في الشرع ، فيصير متطبِّعاً به ، لا مطبوعاً عليه ؛ لأنَّه قد تقدَّم من قول الحكماء : ( ليس في الطبع أن يكون ما ليس في الطبع )[3] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦٢ ) .

(٢) رواه أبو عبيد في « الأموال » ( ٦٩٩ ) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ( ٣٣٧٠٢ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٩/ ١٩٤ ) ، وفيها : ( ولـٰكنَّه أبىٰ ) .

(٣) في ( هـ ) : ( ما ليس من المتطبع ) .

ثم **أقول** : من المتعذِّر أن تكون أخلاق الفاضل كاملةً بالطبع ، **وإنَّما الأغلب** : أن يكون بعضُ فضائله **بالطبع** ، وبعضُها **بالتطبُّع الجاري** بالعادة مجرى الطبع ، حتىٰ يصير ما تطبَّع به في العادة أغلبَ عليه ممَّا كان مطبوعاً عليه إذا خالف العادة ؛ ولذلك قيل : ( **العادةُ طبعٌ ثانٍ** )[1] .

وقد قال ابن الروميّ[2] : [من السريع]

واعلَـمْ بـأنَّ النـاسَ مِـن طِينـةٍ ... يصـدُقُ فـي الثَّلْـبِ لهـا الثَّـالِـبُ
لـولا عـلاجُ النـاس أخـلاقَهُـمْ ... إذاً لَفَـــاحَ الحَمَـــأُ الـــلاَّزِبُ

ـ **وأمّا الفاقة** : فهو أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته إلى اصطفاء مَن يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته .

وقد قالت الحكماء : ( **مَن لم يرغب في ثلاث.. بُلِي بستٍّ : مَن لم يرغب في الإخوان**.. بُلِي بالعداوة والخذلان ، **ومَن لم يرغب في السلامة**.. بُلِي بالشدائد والامتهان ، **ومَن لم يرغب في المعروف**.. بُلِي بالندامة والخسران )[3] .

**ولعَمري ؛ إنَّ إخوان الصدق من أنفس الذخائر** ، وأفضل العُدَد ؛ **لأنَّهم** سُهَماءُ النفوس[4] ، وأولياء النوائب .

وقد قالت الحكماء : ( **ربَّ صديق أودُّ مِن شقيق** ) .

وقيل لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : **أيُّ الناس أحبُّ إليك** ؟ قال : ( **صديقٌ يحبِّبني إلى الناس** )[5] .

---

(١) أورده في « جمهرة الأمثال » ( ٢/ ٣٩ ) .
(٢) البيتان في « ديوانه » ( ١/ ١٨٦ ) .
(٣) أورد قسمه الأول في « غرر الخصائص » ( ص ٣٤٨ ) .
(٤) في ( ج ، د ) : ( شفاء النفوس ) ، وسهماء النفوس : أنصباؤها من هٰذه الدنيا الفانية .
(٥) أورد نحوه في « غرر الخصائص » ( ص ٣٤٨ ) .

وقال ابن المعتز : ( **القريبُ بعداوته بعيدٌ ، والبعيدُ بمودَّته قريبٌ** )[1] .

وقال الشاعر : [من الكامل]

لَمَــودّةٌ ممَّــن يحبُّــكَ مُخلِصــاً  خيرٌ منَ الرَّحِمِ القريبِ الكاشحِ

وقال آخر[2] : [من الطويل]

يخونُكَ ذو القُربىٰ مِراراً وربَّما  وفىٰ لكَ عندَ العهدِ مَن لا تُناسِبُهْ

❁ ❁ ❁

**فإذا عزم على اصطفاء الإخوان . . سبر أحوالهم قبل إخائهم** ، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم ؛ لما تقدَّم من قول الحكماء : ( **اسبُرْ . . تخبُرْ** ) .

**ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة**، ولا حسنُ الظنِّ على الاغترار بالتصنُّع ؛ **فإنَّ المَلَق مَصائدُ العقول**[3] ، والنفاقَ تدليسُ الفِطَن ، وهما سجيّة المتصنِّع ، **وليس فيمَن يكون النفاقُ والمَلَقُ بعضَ سجاياه خيرٌ يُرجىٰ** ، ولا صلاحٌ يؤمل .

ولأجل ذلك قالت الحكماء : ( **اعرفِ الرجلَ من فعله ، لا من كلامه ، واعرف محبّتَه من عينه** ، لا من لسانه )[4] .

وقال خالد بن صفوان : ( **إنَّما نفَقتُ عند إخواني ؛ لأنِّي لم أستعمل معهم النِّفاق ، ولا قصرت بهم عن الاستحقاق** )[5] .

وقال حمّاد عَجْرَد[6] : [من الكامل]

كَـمْ مِـن أخٍ لـكَ لسْـتَ تُنكِـرُهُ  مـا دُمـتَ مِـن دنيـاكَ فـي يُسْـرِ
مُتصنِّـعٍ لـكَ فـي مـودّتِـهِ  يلقـاكَ بـالتَّـرحيـبِ والبِشْـرِ
فـإذا عـدا والـدَّهـرُ ذو غِيَـرٍ  دهـرٌ عليـكَ عـدا مـع الـدَّهـرِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦٥ ) .
(٢) البيت في « ديوان بشار » ( ٤/ ١٦ ) .
(٣) **الملق** : القول الحسن مع خبث القلب .
(٤) لأن العين رائد القلب ، واللسان ترجمانه ، وفي المثل : ( رُبَّ عينٍ أنم من لسان ) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » ( ص ٤٦٢ ) .
(٦) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » ( ٤/ ٣٧٤ ) ، و« الشعر والشعراء » ( ٢/ ٧٨٠ ) .